الأسس الابستمولوجية لنظرية الدّلالة التصورية

مجدي بن صوف *

جامعة زايد كليّة التربية -قسم اللّغة العربية ، bensoufmajdi@gmail.com

الإرسال: 2020/03/03 **القبول:** 2020/09/03 **النشر:** 2020/12/10

الملخّص :

يسود اعتقاد كثير من الباحثين اللسانيين أن الهمّ الأساسي في البحث اللساني هو النظر في اللغة أبنيةً وعلاقاتٍ ومنظوماتٍ داخل الذهن وخارجه ، لذلك نجد منهم من يولي دقائق التفاصيل اهتمامه ، ظنّا منه أنه إذا ظفر منها بأكبر قدر ممكن ، أدرك حدود النظرية و أبعادها وطرق تطبيقها.

ويزداد الأمر اليوم تعقدا مع التدفق الهائل لمدونات الأعمال اللسانية ، فقد أضحت متاحة للجميع . ولكن هذا البحوث اللسانية التي تسعى إلى الإجابة عن ذات الأسئلة التي طرحتها اللسانيات في رحلتها مراحلها الكبرى ، تختلف اختلافا جذريا من جهة منطلقاتها المحركة و أسسها النظرية المتحكمة ، وهي منطلقات لها في الغالب دور أساسي في توجيه البحث وتحديد مآلاته وبناء المناويل ، بل في انتماء صاحب النظرية أو التصوّر إلى هذا الإتجاه أو ذاك .

و المشكلة التي تنضاف إلى عدم القدرة على التّمييز بين المنطلقات النظرية عند الباحثين ، هو التغافل المتعمد للسانيين الكبار منهم خاصة عن ذكر هذه الأسس بشكل صريح ، ففي كثير من الأحيان لا تظهر هذه المرتكزات إلا بعد أن تنضج النظرية أو المنوال ، فتكون البحوث التفصيلية في الغالب سابقة للمقدمات النظرية الكبرى .

* **المؤلف المرسل**: مجدي بن صوف ، bensoufmajdi@gmail.com

في هذا العمل نحاول أن نقدم للقارئ الأسس الابستمولوجية المتحكمة في إحدى أهم النظريات اللسانية المعاصرة وهي نظرية الدّلالة التصورية ، و هي أسس بدت واضحة أحيانا ضمنية أخرى في أعمال أصحاب هذا الإتجاه .

استند جاكندوف إلى مقاربة راسل المنطقية للعالم التي تدعو الفحص الدقيق لما يوجد في الخارج مع إمكان إعادة النظر إلى طبيعة الأشياء في ذاتها مع ترتيبها ترتيبا جديدا وعلى مقاربة تطورية بيولوجية استند فيها الى تصورات فرنسوا جاكوب . وحافظ على الإطار الذهنوي الذي اختطه الإتجاه التوليدي منذ نشأته . في هذه الحدود الثلاث تتحرك نظرية الدلالة التصورية وتقدم مقترحاتها النظرية وتطبيقاتها الاختبارية على اللغة والإنسان .

الكلمات المفاتيح :دلالة تصورية ، نظرية ، تطور ، بيولوجيا ،ابستمولوجيا ، ذهنوية ،دماغ ، ذهن .

The epistemological basis of conceptual semantics theory

Abstract:

Many linguistic researchers argue that the main concern of the linguist is research in the language, in terms of its structures, its relations, and the systems that control it, whether it is present inside or outside the mind.

Therefore, we find researchers who are interested in these linguistic details, and he believes that if he secures the largest group of them, he realizes the limits of the theory, its dimensions and the methods of its application.

But the real problem - in our opinion - today is the great openness to linguistic theories, which most of them agree on the big goal and sometimes in the methods of treatment.

However, it differs radically in its motives for this or that theory, which often have a fundamental role in directing research and in the linguistic affiliation to a linguistic approach or to another.

In addition to the researchers 'inability to distinguish the epistemological foundations of each theory, we note that famous linguists lose sight of mentioning their theoretical foundations.

In many cases, these pillars do not appear until the theory has matured

Detailed research often precedes major theoretical premises. This is especially evident with the great linguists such as Chomsky, Talmy, Lakoff, Langacker and others ...

In this paper, we try to present the epistemological foundations governing the conceptual conception theory, which are found bases at times, And implicit at other times.

Jackendoff has adopted Russell's logical approach to the world, which presupposes a careful examination of what is outside, with the possibility of reviewing the nature of things themselves, with a new arrangement. At the same time, he adopted a biological evolutionary approach in which he based on Francois Jacob's perception.

Key words: Conceptual semantic, theory, evolution, biology, epistemology, brain, mind.

المقدمة :

نظرية الدّلالة التّصوّريّة هي مقاربة شكليّة لمعاني اللّغة الطّبيعية ، طوّرها اللساني الأمريكي رَايْ جاكندوف ضمن منوال نظري امتدّ على أكثر من ثلاثة عقود (1983-1987-1990-1994-2002-2005-2007-2010-2012 - 2015). وقد تميّزت أفكاره فيه بالثّبات

النسبي ، فما نجده في 1983 يتكرّر بطرق أكثر دقّة في ما تلاه من بحوث مع محاولة تعديل بعض المواقف التي بدت في 1983 حادّة و قاطعة.

وقد كان لمقاربته الدّلاليّة هذه ، صدى عند مجموعة علماء النّفس مثل ستيفن بينكر Pinker(1989) ، وبوستوفسكي Pustejovsky (1995) وهوسار. Hauser(2000)

واستطاعت هذه المقاربة أن تخطّ لنفسها موقعا متميّزا ضمن المقاربات المختلفة للدّلالة اللّغويّة. خاصّة أنّ جاكندوف قد عالج فيها قضايا دلالية مختلفة ،انطلق فيهامن البسيط الواضح وصولا إلى المعقّد والمتشعّب .

فمن نقد لحدود التّصوّر السائد للمقاربة الدّلاليّة في الاتّجاه التّوليديّ واقتراح المدخل التّصوّري للدّلالة (1983)، إلى معالجة تقنية لخصائص البنية التّصوّريّة عند المتكلم من زاوية الدّلالة المعجميّة (1990). و من إثارة لمسائل عرفانيّة متعلقة بكيفيّة اشتغال الذّهن و بحث عن قدرات عرفانيّة مماثلة لملكة اللّغة (1992/1994) إلى وضع الأسس العامة المشتركة التي تقوم عليها اللّغة(2002) . ومن اقتراح تصور تركيبي أدنوي جديد وسمه بالتّركيب الأبسط simpler syntaxبديلا عن المقاربة الأدنوية في التيار التّوليديّ (2005) إلى اقتراح تمثيلات هندسة موازية للّغة في علاقتها بالذّهن (1997 /2010).

وهو في كل هذه المحاولات مدافعٌ شرس عن مقترحه للبنية التّصوّريّة باحثٌ عن موقع متفرد و مستقل في البحوث اللسانيّة ذات التوجه العرفاني ، ناقدٌ دائم لمقترحات التّوليديّة بعد أن كان دافع على تصوراتها بشراسة إلى حدود سنة 1982 قبل أن ينقلب عليها في أحدى أشهر المعارك اللسانية التي دارت بين تشومسكي وتلاميذه .

ولإدراك حقيقة الخلاف الحاصل بين جاكندوف وتشومسكي كان لابدّ من النظر في الخلفيّة التي أسهمت في بناء منوال الدلالة التصوّرية ولنا في ذلك غايتان أساسيتان:

أولاهما أن نقدم مادة علميّة لنظرية لسانية معاصرة .

ثانيهما أن نفهم كيفية بناء النظريّات و المناويل اللسانيّة وكيفية وصلها بين المنطلقات الفكرية النظرية و الوجه التطبيقي الإختباري للّغة باعتماد أبنية تركيبية ومعجمية دقيقة ، وهو الأهم في تصورنا .

بين تشومسكي و جاكندوف التوليدي:

لا يمكن لنا أن نفهم الأسس النّظريّة التي تقوم عليها الدّلالة التّصوّريّة ما لم نفهم الخلفيّة الفكرية العامة التي استند إليها جاكندوف. إذ لا يمكن لرجل نهل من التّوليديّة ما نهل ، ودافع عنها دفاعا شرسا أن يعتمد نفس المنطلقات الإبستمولوجيّة للوصول إلى نظرية مختلفة . ولو فعلَ ، لبقي ضمن الدائرة الكبرى التي يسميها جاكندوف في أعماله بالاتّجاه التّوليديّ السائد (جاكندوف 2005).

انتصر جاكندوف لأستاذه في مواجهته اللسانيّة لأصحاب تيار الدّلالة التّوليديّة ، الذي ظهر في أواخر الستينات . ثم ما لبث أن طرح نفسه بديلا قويا في السبعينات وقد نشأ هذا التوجه على يد مجموعة من تلاميذ تشومسكي و من أشهرهم روس John R. Ross و بوسطال Paul Postal و ماكاولي James McCawley ثم التحق بهم لايكوف George Lakoff وسورن Pieter Seuren. ،

لعب جاكندوف في هذه المعركة – على حدذ تعبيره _ دورا أساسيا متميزا ، وهو ما جعل تشومسكي يشيد به في كتاب اللّغة والمسؤولية حين قال " وأستطيع أن أعيد ثانية أنّ الأفضل من بين هؤلاء جميعا (ويقصد هنا من استطاع أن يقدم حلولا للمشاكل التي اعترضت النظرية المعيارية) هو جاكندوف الذي أثبت في سنة 1964 أو 1965 أنّ التّركيب السّطحي يلعب دورا أكثر أهميّة في التّمثيل الدّلالي عن بقية الأدوار التي اقترحت" ((تشومسكي ، اللّغة والمسؤولية ص 296) .).

لقد اقترح جاكندوف حلولا جديدة لتفسير العلاقة بين البنية العميقة والبنية السطحية في مواجهة الاتّجاه الدّلالي التّوليديّ .فجاءت أعماله تأكيدا للفرق بين مستويَيْ البنية العميقة و البنية السطحية و جملة النُقُول التي تقع بينهما . وقد أسهمت ملاحظاته هذه في التعديلات التي ادخلها تشومسكي على النظرية المعيارية واقتراح ما أصبح يطلق عليه لاحقا اسم "النّظريّة المعيارية الموسّعة Extended Standard Theory

وقد وصف تشومسكي التّمثيل الذي وصل إليه جاكندوف ، والذي أثبت من خلاله كيف تلعب القواعد الخاصّة بالبنية السطحية دورا هاما في التأويل الدلالي بقوله: "إنه اقتراح قويّ ويلعب دورا أساسيا في التأويل الدلالي". (تشومسكي اللّغة والمسؤولية ص313).

إذن لم يكن جاكندوف مجرّد مريد من مريدي التوليدية ، بل استطاع أن يحتل مرتبط الشريك النظري في تلك الفترة خاصة بعد إصداره لكتاب التأويل الدلالي في النحو التوليدي سنة 1972 Semantic Interpretation in Generative Grammar

يتحدث جاكندوف عن هذه الفترة بشيء من المرارة فيقول "لقد شنّ تشومسكي ومن كان معه من تلاميذه حينذاك –وقد كنتُ من بينهم – حملة ضارية على نظرية الدّلالة التّوليديّة. وفي سنة 1973 عندما انتهت "الحروب اللسانيّة" كان تشومسكي هو المنتصر.

لقد انتظر تلاميذ تشومسكي – ومنهم جاكندوف – أن يحقق ما كان وعدهم به من أنه سيتفرغ لتقديم منوال صريح يمكّن من محاصرة المعنى في بعده الكوني .

ؤلكن هذا لم يقع ، بل إن الأمر اقتصر في تلك الفترة على إحداث تعديلين في نظريته ، يتمثل التعديل الأول في أنّ تشومسكي لم يعد يدافع على اعتبار البنية العميقة المستوى الوحيد الذي يحدّد المعنى ، أمّا التعديل الثاني وهو المهم بالنسبة إلينا فهو أن تشومسكي بعد أن ربح المعركة لم يواصل الاهتمام بالمعنى وضرب عنها صفحا ، وانصرف إلى البحث عن القيود الفنّية الموضوعة على النقول الواقعة بين البنيتين العميقة والسطحية" (جاكندوف 2003 ص 654)

كشف جاكندوف عن خيبة الأمل التي أصابت كل المؤمنين بهذا التيار ، بل إنه وصف ما بشّر به تشومسكي من "إمكان للقبض على المعنى" ، في البعد الكوني لهذا اللفظ ،"بالوعد الكاذب") (The broken promise.

لقد صُدم المهتمون بالنّحو التّوليديّ من هذا التراجع ، وهو ما دفع بالعديد من الباحثين اللّغويّين وغير اللّغويّين "إلى الانصراف عن النّحو التّوليديّ مع شعور بالخيبة عميق . بلّ إن الأمر لم يقف عند الجانب النفسي بل شمل المستوى المعرفيّ ."فتنكّر العديد من الباحثين للأفكار الأساسيّة التي قامت عليها التّوليديّة مثل مفهوم البنية العميقة ومفهوم الذّهنوية والفطرية بل إنّ الأمر وصل بهم إلى إنكار مبدأ التأليفية أيضا." (نفسه)

لقد شعر جاكندوف أنه يقف في موضع " المغبون أو المغرّر به" ، و أنّه "صدّقَ وعدا كاذبا " (جاكندوف 2003 ص 654. لذلك كان لا بدّ له حتّى يخرج من الدائرة الكبرى للتّوليديّة أن يعتمد منطلقات نظريّة جديدة وهو ما أنجزه بالفعل

الخلفيّة الإبستمولوجيّة لنظرية لدّلالة التّصوّريّة

من خلال بحثنا في المنطلقات الإبستمولوجيّة للنّظريّة التّصوّريّة لاحظنا مخالفة جاكندوف لمنطلقات الاتّجاه التوليدى . فقد استبدل عقلانية " ديكارت(1596-1650)" بتحليلّية " راسّل(1872-1970)" واستبدل نتائج فيزياء " قاليلي(1564-1642)" وتصوّره المثالي للعالم بنتائج بيولوجيا "فرانسوا جاكوب (1920 -2013)" وتصوّره التّطوّري للعالم .

وهذه المنطلقات المختلفة التي استند إليها جاكندوف في بناء تصوراته هي التي مكّنته في 1990 من الردّ على كتاب أستاذه " البنى التّركيبية " بكتاب " البنى الدّلاليّة " و من التعقيب سنة 2005 على فرضيّة " البرنامج الأدنوي " بفرضيّة " التّركيب الأبسط " وهو في ذلك كلّه مُحاورٌ لأستاذه ، باحثٌ عن موقع خاص ضمن هذا الكم الهائل من النظريّات اللسانيّة و العرفانيّة.

ولكن سعيه هذا لم يسعفه بالاستقلال التام إذ بقي منتميا من جهة الإطار النظري العام للدّلالة التّصوّريّة إلى ما يطلق عليه اسم النّظريّة الذّهنوية A Mentalist Theory .

1 - الخلفيّة الفلسفية من ديكارت إلى راسّل .

لم يصرح جاكندوف بصورة واضحة باعتماده على تصورات راسّل ، بل إنه لم يذكره إلا في سياق نقدي . ولكن إذا استثنينا الاختلاف الحاصل بينهما في مستوى المعالجة التطبيقيّة الدقيقة للأبنية اللّغويّة لاحظنا تشابها بين الرجلين. فما هي مواطنه وما هي أهميته في بناء التّصوّرات النّظريّة الكبرى عند جاكندوف ؟

يورد راسّل في كتابه " بحث في المعنى و الصدق" " تصنيفا عاما للمقاربات الإبستمولوجيّة المختلفة للعلم ويجمعهما في اثنتين .(ص12- 13)

مقاربة أولى يتمّ فيها قبول التفسير العلمي للعالم ، لا باعتباره حقيقة ثابتة أو مؤكدة ، بل باعتباره أفضل ما هو متاح من تفسير في تلك اللحظة. وتُعالَجُ المعرفة هنا على أنها علاقة بين الكائن و الشيء أو بجزء منه وفقا لمن ينظر إلى المعرفة من الخارج .

ويمكن حسب راسّل التمييز في هذا الضرب من البحث بين نوعين من الوعي: "وعي إدراكي" ، نجده عند الإنسان والحيوان والآلة ، وتقوم فيه المعرفة على حضور منبّه من طراز ما

. و "وعي خبراتي" ، ويقوم على التعلّم بفعل الخبرة وهذا النوع من المعرفة يميز الكائنات الحية عن غيرها من الكائنات .

ب- مقاربة ثانية ، تقوم على فحص دقيق للأشياء . ولايتمّ فيها القبول المباشر للموجودات من حولنا كماهو الأمر في المقاربة السابقة. ويستند أصحاب هذا التوجه إلى نتائج الفيزياء الحديثة ، فالفيزياء تؤكد لنا حسب راسّل "أن ما نسميه الأشياء المُدركة perceiving Objects) (ليست في الحقيقة سوى نهاية لسلسلة طويلة من المسبّبات التي تبدأ من الأشياء والتي لا تشبهها إلاّ نادرا وذلك في صورة مجرّدة جدا ". (راسّل ، بحث في المعنى ،ص 14-15).

تنطلق هذه المقاربة من فكرة مركزية مفادها " أن الأشياء تختلف عمّا تبدو عليه في الظاهر. فنحن نعتقد أن العشب أخضر وأن الأحجار صلبة وأن الجليد بارد . ولكن الفيزياء تؤكد أن الخضرة والصلابة والبرودة التي نعرفها من خلال تجربتنا الخاصّة إنما هي أشياء مختلفة تماما . فعندما يرى الناظر إلى حجر مثلا ، فهو في الحقيقة — وفقا للقوانين الفيزيائية —لا يشاهد سوى أثر ذلك الحجر في نفسه ولا يرى الحجارة في ذاتها ، وكذلك الصّلابة فهو لا يدرك الصلابة في ذاتها بل يدرك اثر الشي الصلب على حواسه مما يجعله يحكم عليه بهذه الصفة أو ، والأمر نفسه لخضرة العشب وزرقة البحر وسواد الليل .

لذلك يخلص راسّل إلى أن : العلم إذا أراد أن يكون شديد الموضوعية وجد نفسه غارقا في الذاتية وهذا مناقض للمبدأ العلمي الأول . فعالم السلوك مثلا وهو يسجل ملاحظاته عن العالم الخارجي مدعيا العلميّة والموضوعية الصارمة ، لا يعدو أن يكون مسجلا لما يقع في نفسه شخصيا من خلال ما يراه. وتقودنا هذه الاعتبارات إلى الفحص الدقيق لمـا يُعتقد أنه معرفة.

يحضر هذا التّصوّر الثاني لنظريّة المعرفة بقوة في الدّلالة التّصوّريّة ، بل يمثل النقطة المركزية التي أسس عليها جاكندوف مفهوم التّصوّر الدلالي . فليس كل ما نراه حسب جاكندوف يمكن أن نعتبره شيئا واقعيا. لذلك فكلّ شيء من حولنا لا يحمل سوى دلالة ذاتية خالصة ، نعبر عنها باللّغة وهي في الحقيقة تصوّر لما هو موجود في أذهاننا وليس للموجود في ذاته .و يبدو جليّا خاصّة عند معالجته قضيّة الصدق والإحالة .

من مقتضيات هذه المقاربة الإبستمولوجيّة حسب راسّل اعتماد مفهوم "إعادة الترتيب ". فما نعتقد أننا نعرفه في مجالات المعرفة المختلفة (رياضيات و تاريخ و فلك أو ..) ليس مطابقا للترتيب المنطقي الذي يظهر لنا ولا يتطابق في الوقت ذاته مع ترتيب الاكتشافات رغم علاقة بعضها ببعض . ويضرب راسّل على ذلك أمثلة مختلفة نأخذ منها مثال علم الفلك. ففي النّظريّة الرياضية لحركة الكواكب ،يختلف التّرتيب المنطقي عن التّرتيب التّاريخي .ففي التّرتيب المنطقي ننطلق عادة من قانون الجاذبية بينما ينطلق التّرتيب التّاريخي من ملاحظات تيكو براهي 1601)– 1546)Tycho Brahe التي أدت إلى قوانين يوهان كيبلر Johannes

Kepler (1571 - 1630) للحركة الكوكبية سنة 1609. يشابه التّرتيب الابستمولوجي التّرتيب التّاريخي ولكنهما ليسا متطابقين إذ لا يمكن أن نقنع بالملاحظات الأولى . وان كنا – حسب راسّل – نعتمدها فلا بد من إيجاد دليل على إمكانية الثقة بها . وهو ما لا يتسنى إلاّ من خلال ملاحظاتنا الخاصّة.

يخلُص راسّل من خلال عرضه لهذا المثال إلى أن فلسفة العلم يجب أن ترتب معتقداتنا ترتيبا معيّنا بدءا من تلك التي نتعامل معها بوثوق تامّ وتكون في استقلال عمّا يثار حولها من جدل . ويمكن أن نعتبر هذا النوع من المعتقدات " مقدمات أساسيّة" ترتبط بأحداث غير كلامية يمكن وسمها "بالخبرات"و يعدّ البحث عن طبيعة هذا الارتباط أحد الأسئلة الأساسيّة في فلسفة العلم هذه .

يظهر هذا المبدأ واضحا في نظريّة جاكندوف الدّلاليّة من خلال إعادة ترتيب العلاقة بين مكوّنات النّحو . فجاكندوف لم يقترح في منواله مكونات جديدة للنحو ، أو زاد على ما وجده في الاتّجاه التوليدى ، ولكنه انتقل من ترتيب للمكونات يقوم على مركزية المكون التّركيبي في اللّغة عند التّوليديّن ، إلى ترتيب يقوم على علاقة الموازاة بين المكوّنات الرئيسية الثلاثة (صوت- تركيب – دلالة) . و من فرضية تشومسكي التي تقوم على تفرّع المستوي الصوتي والمنطقى من المستوى التّركيبي بواسطة الاشتقاق ، إلى فرضية الموازاة بين المكوّنات الأساسيّة من خلال علاقة التواجه الحاصلة بينها interface) (.

إذن فهو يعيد هنا ترتيب المكوّنات ويصنف العلاقات الواقعة بينها تصنيفا جديدا . وقد تبدو علاقة جاكندوف براسّل أكثر وضوحا في تصوّره لعلاقة اللّغة بالمرجع ، حين ذهب

إلى أنّ المرجع هو ما نبنيه من متصورات على الواقع وليس الواقع الحقيقي كما واقع في الخارج وهذاما ذهب إليه راسّل .

إضافة إلى إعادة ترتيب المعرفة المسلم بها فما هي الخصائص المميزة لهذه المقاربة الإبستمولوجيّة ؟

يذهب راسّل إلى أن الابستومولوجيا يجب أن تشتمل على "عناصر منطقية ونفسية ".(راسّل ص 18) أما من جهة المنطق فيجب أن نأخذ في الاعتبار العلاقات الاستدلالية Inferential Relations" بين المقدمات الأساسيّة ونتائجها وأن نضع في الاعتبار الخاصية المنطقية للمقدمات الأساسيّة نفسها.

وأما من جهة الجانب النفسي فيجب اختبار العلاقة بين المقدمات الأساسيّة و الخبرات ودرجة الشكّ واليقين التي يشعر بها الفرد فيما يتعلق بكل منها والطرق التي تُمكّن الفرد من تقليص درجة الشكّ وتقوية درجة اليقين.

إضافة إلى هذا ، يربط راسّل في تصوره للعالم بين نظريّة المعرفة والإدراك القائم على الحسّ المشترك وهو ما نراه واضحا عند جاكندوف حين يعالج قضايا الإدراك ودورها في بناء التّصوّرات الذّهنيّة عند الفرد

من خلال ما تقدم نخلص إلى أنّ:

جاكندوف اعتمد مقاربة منطقية ونفسية للعالم ، تفترض الفحص الدقيق لما يوجد في الخارج مع إمكان إعادة النظر إلى طبيعة الأشياء في ذاتها مع ترتيبها ترتيبا جديدا .

ولكن إن بدا اعتماد جاكندوف على راسّل واضحا هنا فكيف تخلىّ عن المنطلقات الديكارتية ؟

يقوم التّصوّر العام في الاتّجاه التّوليديّ على أن الدّلالة تتواجه مباشرة مع المستوى التّركيبي ويضطلع التواجه التّركيبي – الدلالي بتحديد دلالات المعنى واحدا وحدا انطلاقا من البنية التّركيبية .

والافتراض الضمني– والذي نادرا ما يُصرَّحُ به حسب جاكندوف هو أن الفكر التوليفي(Combinatorial Thought) لا يمكن تحقيقه إلاّ من خلال اللّغة التأليفية

(Combinatorial Language) وهذه الفكرة ديكارتية الأصل . وهي فكرة تنسجم مع التّصوّر الذي ساد في القرن العشرين والذي يُرجع عدم قدرة الحيوانات على التفكير إلى افتقارها لملكة التوليف. وفي مقابل هذا التّصوّر الذي يربط بين الدّلالة والتّركيب ربطا وجيهيّا في مستوي التّمثيل الذّهنيّ. ويقدّم جاكندوف تصوّرا ناقدا ، اعتمادا على نتائج بحوث العرفان السلوكيّ الحديث (Cognitive Ethology).

وتأتي فرضيّة الدّلالة التّصوّريّة – حسب جاكندوف – تعبيرا عن حدس يرى أن اللّغة تطوّرت لكي تعبّر عن ملكة الفكر الموجودة ما قبليا وهو ما ينسجم في وجه من وجوهه مع تصورات فرنسوا جاكوب في التّطوّر .

2 - الخلفيّة الإبستمولوجيّة الثانية من قاليلي إلى فرانسوا جاكوب :

يقوم التّصوّر العام للّغة عند جاكندوف على التّصوّرات البيولوجية المنسوبة إلى "فرنسوا جاكوب " . وهي تصورات ترى الكون في حالة نقصان دائم وهو ما يقتضي منه أن يكون في حالة تطوّر مستمر لبلوغ نقطة الكمال . خلافا للتصور العام للّغة في الاتّجاه التّوليديّ السائد الذي يقوم على موافقة التّصوّر القاليلي للعالم ،وهو تصوّر يقوم على فكرة "العالم الكامل المثالي". (جاكندوف ص5- 2005.) لذلك يرى أن مهمتنا تفرض علينا البحث عن النّظام الذي يسير هذا العالم .

فما هي أهم أوجه إفادة جاكندوف من هذه الخلفيّة البيولوجية ؟

الملامح العامة لنظريّة جاكوب : فرنسوا جاكوب (1920-2013) طبيب وعالم بيولوجي مختص في البكتيريا وتطوّرها وتركيبتها الجينية أصدر سنة 1977 مقالا موسوما " بالتّطوّر و الابتكار " . وقد اختزل فيه تصوّره للكون.

يؤمن جاكوب بمفهوم التّطوّر الذي افترضه داروين(1809-1882) ضمن بحوثه عن الأحياء وقد طبق "جاكوب" هذه الفرضيّة على عالم الباكتيريا . ولكن كيف ينظر إلى طبيعة هذا التّطوّر ؟

يقارن جاكوب عملية الانتقاء الطّبيعي الحاصلة في التّطوّر بما يقوم به المهندس (Engineer) في عمله ولكنه يحترز من هذه المقارنة ويعتبرها غير مناسبة من زويا ثلاث :

من حيث منهج العمل ، فالمهندس يعمل وفق تصور خطة مسبقة ، عادة ما تكون نتاجا لمجهوده.

و من حيث طريقة العمل ، إذ يتوفّر للمهندس المادة المعدّة لبلوغ غايته والآلات التي صُممت لتلك المهام المخصوصة حتى يتمكن من صنع منتوج جديد .

ومن حيث غاية العمل ،فالأشياء التي أنتجها المهندس الجيد تسعى إلى بلوغ مستوى الكمال و ويظلّ الأمر ممكنا بواسطة " فعل الزمن". هذا ما يتعلق بخصائص عمل المهندس الذي يقارنه البعض بالانتقاء الطّبيعي .

و على النقيض من ذلك فان التّطوّر الذي يصيب الكائن ينأى — حسب جاكوب - عن سمة الكمال و التمام .وهذه هي النقطة التي ألحّ داروين عليها في أعماله . فقد قاوم داروين فكرة الخلق المثالي . والأمر نفسه نجده حين يعالج مسالة الأصل البيولوجي للعالم الحي إذ يؤكد داروين مرارا النقص البنيوي والوظيفي للأحياء وهو ما يدفعها إلى التطوّر بيولوجيا لتأمين بقائها عبر تحقيق الوظائف التي كانت عاجزة عن تحقيقها قبل التطوّر. و لدعم هذه الرؤية يقدم جاكوب أمثلة عديدة على فكرة قصور الكائن الحي لعلّ أبرزها حجة "انقراض الكائنات الحية " (جاكندوف 2011ص 1163)

وعلى هذا الأساس لا يشبه الانتقاء الطّبيعي أيّ سمة من سمات المهندس. وإذا أردنا أن نقيم مقارنة وجب القول أن الانتقاء الطّبيعي لا يمكن مقارنته بعمل المهندس بل من الفضل تشبيه بعمل المبتكر) (Tinkerer.

"فالإبتكار هو القدرة على تطوير فكرة أو عمل أو تصميم أو أسلوب بطريقة أفضل وأسرع دون سالف تخطيط مسبقا " ، و المبتكر لا يعرف بالضبط ماذا سيصنع ، ولكنه يستعمل كلّ ما يجد حوله سواء كان جزءا من خيط أو قطعة من خشب أو بقايا صناديق كرتونيّة قديمة لإنتاج شيء عمليّ .

إذا نظرنا - حسب جاكوب- في نقاط الاختلاف بين المهندس والمبتكر وجدنا "المهندس" يعتمد في تحقيق مهمّته على الموادّ الأوليّة والأدوات الملائمة لمشروعه بصورة دقيقة . وعلى عكس ذلك يستثمر "المبتكر" الأشياء المتناثرة هنا وهناك وبقايا الأثاث التي لم

تعد صالحة ، لينتج في النهاية شيئا غير مقترن بمشروع خاص مضبوط. ويعدّ هذا المنتوج حصيلة أحداث عرضيّة لجملة من الفرص التي تمّ استغلالها استغلالا جيّدا.

ليست هذه الفكرة جديدة إذ تمتدّ جذورها إلى عالم الأنتروبولوجيا كلود ليفي-شتراوس (1908-2009)إذ بيّن أنه لا توجد مادّة من الموادّ المتوفرة لهذا المبتكر قد اختُصّت بوظيفة دقيقة أو بدور مخصوص فكلّ أداة من هذه الأدوات يمكن أن نعتمدها في استعمالات مختلفة.

و خلافا لأدوات المهندس لا يمكن لأدوات المبتكر أن تُحدَّدَ – ما قبليّا – بواسطة المشروع المنجز .فالمشترك بين هذه الأدوات التي يستعملها المبتكر أنّه لا يعرف عنها سوى أنها أدوات مُعدّة لمجموعة من الاستعمالات دون تخصيص أو تدقيق. ويعتمد تحديد وظيفتها المخصوصة حسب جاكوب على الحالات أو الفرص التي تُمنَحُ لمستعملها (2011ص1164).

وخلافا للمهندس الذي ينتهي عادة إلى نفس النتائج إن هو عالج نفس المشاكل بنفس الأدوات ، يمكن للمبتكر أن ينتهي إلى نتائج مختلفة إن هو عالج نفس المشاكل بالأدوات ذاتها.

وهذا الأمر نجده في الأحياء التي تخضع لمراحل التّطوّر، وأبسط مثال على ذلك تشكيلة العيون المختلفة الموجودة في عالم الأحياء . . فمن الواضح أن مشكلة الرؤية من المشاكل الرئيسية التي اعترضت كل الكائنات ولكن الحلول كانت مختلفة وهو ما يؤكد أنه توجد فوائد كبيرة ضمن الشروط المتعدّدة لامتلاك مستقبلات ضوئية مختلفة .

ومن خصائص التّطوّر أيضا، أنه لا يُنتج طفرات منذ البداية فهو يشتغل بما هو موجود . فإمّا أن تنتظم المكوّنات الموجودة مسبقا في" نظام " وهذا النّظام يؤدى إلى وظائف جديدة . أو أن تندمج عدّة أنظمة لإنتاج نظام واحد يكون أكثر إتقانا . وقد حدث هذا الأمر أثناء تطوّر الخلايا وتحديدا عند الانتقال من خلايا أحاديّة الشكل إلى خلايا متعدّدة الشكل وقد مثل هذا انتقالا مهمّا جدّا لأنّه حمل إمكانيّة هائلة في تخصّصات الأجزاء.

مثل هذا الانتقال – الذي قد يكون حدث العديد من المرات – لم يقتض خلقا لنوع كيمياويّ جديد ، فليست هناك اختلافات رئيسيّة بين جُزيئات الكائنات الحية أحاديّة الخليا

و متعدّدة الخلايا (Unicellular¬ And Multicellular Organisms) . لأن العملية تتمّ أساسا من خلال إعادة تنظيم الموجود لا من خلال خلق موجود جديد .

لهذا النمط من العمليّات سمات عدّة على غرار عمليّة التّطوّر. ففي أغلب الأحيان وبدون أيّ مشروع واضح المعالم أو طويل المدى يعطي المبتكر لأدواته المستعملة وظائف غير متوقعة لإنتاج شيء جديد . فمن عجلة درّاجة قديمة يصنع زلاجة ، ومن كرسيّ مكسور يصنع صندوقا لحفظ الرّاديو و الأمثلة على ذلك عديدة .بهذه الطريقة ذاتها تطوّرت أعضاء الجسد. فالجناح أصبح رِجلاً و القطعة من الفكّ أصبحت أذنا ولكن هذه العملية تأخذ وقتا طويلا .

تقع عمليّة التّطوّر هذه كما يتصرف المبتكر. فأثناء حقب متعاقبة من الزمان ، يعدّل عمله ببطء مع إدخال تعديلات مختلفة فهو يقطع شيئًا من هنا ، ويطيل شيئًا آخر من هناك ، ويتحيّن الفرص بصورة تدريجيّة ليصل إلى استعمال جديد. و يقدّم جاكوب أمثلة مختلفة لهذا التّطوّر الشبيه بعمل "المبتكر" نَنقُل منها واحدا وهو مثال تكوّن الرئة .

فالرّئة وفقا لما خلص إليه ارنست ماير Ernst Mayr تشكّلت كما يلي : اتخذ تطوّرها مرحلتين ،أما الأولى فقد بدأت مع الأسماك التي تعوّدت العيش في المياه العذبة ثمّ اضطرّت إلى العيش في البرك الرّاكدة التي تفتقر إلى الأكسيجين . تعوّدت هذه الأسماك على ابتلاع الهواء الجوّي وعلى تنفس الأكسيجين ، من خلال جدران المريء The Walls Of The Esophagus) (. ووفقا لهذه الشروط توسّعت المنطقة السطحيّة للمريء وزوّدت بمحاسن الانتقاء وتحت الضغط الانتقائي المستمرّ توسعت وأصبحت رئتين. أما التّطوّر الثاني للرئة فقد كان مجرّد توسيع لمنافذ الأكسيجين وللعروق لتجعل التّطوّر الذي أصاب الرئة مع قطعة من المريء يبدو مشابها لعمل المبتكر.

ولهذا التعديل المستمر أوجهٌ عديدة في عالم الأحياء عند البشر وعند عدد كبير من الثدييات بل يشمل أيضا أعضاء مختلفة من الجسم . ولكن ماذا عن الدّماغ البشري ؟

على الرغم من أنّ دماغنا يمثل السّمة الرئيسيّة لنوعنا فإنّ طريقة تكيّفه التي جعلته ينتهي إلى ما هو عليه يبدو غامضة . والأمر الواضح الوحيد — حسب جاكوب - أنّ دماغنا مثل بقيّة جسمنا كان نتاجا للانتقاء الطّبيعي . وقد تمّ ذلك من خلال إعادة الإنتاج التفاضليّة

المتراكمة على مرّ ملايين السنوات تحت ضغط شروط البنية المختلفة . فالدماغ لم يتطوّر كما تطوّرت الأعضاء الأخرى كالجناح الذي تطور إلى ساق أو بل إنّ تطوّره مثّل تطوّرا خارقا مقارنة بالتّطوّرات الأخرى .

وأهمّ ما خلص إليه جاكوب من نتائج هو أنّ:

البنية الحاليّة لعالَم الأحياء هي إحدى نتائج تاريخ التطوّر التي وقعت على سطح الأرض .

الكائنات الحيّة أبنية تاريخيّة ، وإذا تتبّعنا بصورة خطيّة هذه المخلوقات التّاريخية ، وجدنا أنّها لا تمثل نتاجا لعمل هندسيّ متقن ولكنّه يمثل مزيجا (a patchwork) لمجموعات مختلفة يرتبط بعضها ببعض متى سنحت الفرصة.

فرص الانتقاء الطّبيعي لا تتمّ بين التّركيب والعمليّات التي تنتجه كما اتفق ، بل تعكس عمليّة تاريخيّة مليئة بالطوارئ التي تفرض تغيرا مستمرا.

أثر هذه النّظريّة في تصورات جاكندوف :

ينتمي جاكندوف صراحة إلى التصور التطوري ، و يذهب إلى أن ملكة اللّغة قد تطوّرت عبر الزّمن ، شأنها في ذلك شان أعضاء الجسم ومكوناته البيولوجية المختلفة. وبما أن اللّغة في الدّماغ . والدّماغ في ذاته كائن متطوّر فإنّنا نجد أنفسنا – على حد قول جاكندوف -على استعداد للتراجع عن التسليم بمفهوم "نظريّة لغويّة موحّدة وبسيطة" وأن نعترف بأنّ اللّغة مليئة بالأطوار الغريبة غرابة أجزاء العالم البيولوجي تنشأ من خلال الحالات الطارئة من التاريخ التّطوّري. فكيف ذلك ؟

يتمثل المكوّن الجيني للّغة في مجموعة من الابتكارات المتواصلة والمختلفة التي حصلت على مرّ السنين . و تسهم كلّ من هذه الابتكارات في تحسين نوع نظام التواصل ، هذا النّظام الذي يمكن أن يُتعلّم من خلال الاتصال الثّقافي .

قد لا تبدو هذه الصّورة أنيقة أناقة المقترح "القاليلي" المثالي الكامل الذي اعتمده تشومسكي ، ومن ورائه كامل الاتّجاه التّوليديّ . ولكن قد يؤدّي إلى جماليّة مختلفة عن النموذج الذي تعودنا عليه . وهو عين ما يدعو إليه جاكندوف إذ يرى أنه "قد آن الأوان للتخلي

عن جماليّة نظريّة "قاليلي" المثالية وأن نتعلّم كيف نقبل مع هذا الأمر الجديد ونتعايش معه الحديث ولو بدا لنا قبيحا".(جاكندوف -2005ص 543).

إذن فالفرق كبير- حسب جاكندوف- بين أن نتعامل مع "نظام تامّ مثاليّ أنيق" و أن نتعامل مع "نظام في حركة تطوّر مستمرّة ". فما نتعامل معه اليوم - أي اللّغة في صيغتها الراهنة - نتاج لسلسلة من هذا التّطوّر المعقّد و المتشعّب والمكثّف . و هذا الاختلاف يجعلنا ننتقل من فكرة النّظام البسيط السّاذج الذي نبحث عن تفسير للعلاقات البسيطة الساذجة التي يحتكم إليها ،إلى نظام معقّد يجب أن نبحث له عن الأبنية المساعدة على فهمه والداعمة لاستضاحه.

من هنا نفهم درجة التعقّد التي تواجهنا ونحن نتعامل مع مقترحات النّظريّة التّصوّريّة ، فهي تعكس رؤية صاحبها للغة ، من منطلقات تختلف في جوهرها عن منطلقات الاتّجاه التّوليديّ السّائد. ولكن المناويل الجديدة والنظريات الطارئة لا بدلها من أساس جديد ، وهو الأمر الذي دفع جاكندوف إلى تبرير الهيأة التي قد تخرج عليها نظريته فيقول " نحن ندرك أنّ نظريّة ضخمة للّغة ستكون فتحا علميّا عظيما ، فلا غرابة إذن أن تبدو صورة مقترحنا غير جميلة و لا أنيقة " (جاكندوف -2005 ص 543)

هذه الملاحظة القائمة على التقريب بين نتائج البحث البيولوجي و اللساني تحولت إلى فرضيّة عمل أطلق عليها جاكندوف "فرضيّة صندوق العدّة (The Toolkit Hypothesis (جاكندوف 2005 ص 5) وتقوم هذه الفرضيّة على أن كل لغة تقوم بعملية انتقاء مختلفة و مشخصة لأدواتها لكي تبني توافقات مختلفة بين الصوت والمعنى .

لقد خرج جاكندوف عن فرضيّة الاتّجاه التّوليديّ التي ترى في اللّغة نظاما تاما كاملا مثاليا. وفي مقابل ذلك يرى أن اللّغة قد زودت ضمن رحلة تطوّرها المجموعات البشرية بأدوات مختلفة وسمها "بصندوق العدة" . الصندوق شبيه بما يجده المبتكر من حوله ليصنع أشياء جديدة. أما "صندوق عدّة اللّغة" فيتمثل في مجموعة الإمكانات التي تمكّن من ابتكار ألسنة مختلفة على مرّ الزمان .فما هي أوجه التّطوّر الذي يصيب اللّغة ؟

تتطوّر اللّغة من وجهين متوازيين . وجه تركيبي ووجه دلالي وتكون صورتهما حسب جاكندوف كما يلي :

إذا انطلقت من الكلمات ، فقط فإنّها ستتطوّر إلى بنية جملة. وذلك إذا استطعت أن تجمع الكلمات بعضها إلى بعض بصورة صحيحة.

وإذا كان لديك بنية جملة ، فإنّها ستتطوّر إذا استطعت أن تصوغها وفقا للتركيب الصحيح والوسم الموضعي المناسب وهو ما نسمّيه بالدّور الدلالي لكلّ جملة .

انطلاقا من هذا يمكن لك أن تضيف مستوى صف الوظائف النّحويّة (The Grammatical Function Tier)لأنّ لديك احتمالا شبه مؤكّد لوسم أدوار المركب الاسميّ.

و يعدُّ هذا التّصوّر من المقترحات التي يقوم على مفهوم التّطوّر ويقوم بصورة موازية على محور آخر .

فإذا كانت لديك كلمات فإنّ التّطوّر يكون في وجود "ترخيص غير مباشر" (Indirect Licensing). (وهي آلية شكلية تتحكم في التّركيب254-2005) لربط معنى منطوق بمنطوق آخر.

وإذا كان عندك "ترخيص غير مباشر" إضافة إلى تركيب فمن أوجه التّطوّر أن يقع إضافة الخصائص التّركيبيّة إلى الترخيص غير المباشر وذلك لجعل المنطوق أقلّ غموضا.

وإذا وجد تركيب إضافة إلى "ترخيص غير مباشر" فإنّ التّطوّر يتم في استعمال المسافات البعيدة في مستوى البنية الإعرابيّة مع الآثار التي تحصل منها فذلك من شأنه أن يحرّرك لكي تعبّر عن التبئير و الدّور المحوري في ذات الوقت مستعملا السلاسل التّركيبيّة (ص 543 - جاكندوف2005).

تعتبر هذه الفكرة مركزيّة في نظريّة الدّلالة التّصوّريّة . ورغم أنّها لا تظهر بوضوح في أعمال جاكندوف الأولى فإنّه يعتبرها على درجة من الأهميّة تضاهي أفكاره المركزيّة مثل فكرة الاشتقاق ، الحركة ، وعلاقة المعجم بالنّحو. ويعلن عن ذلك صراحة في جاكندوف2005 ص 544 .

هكذا تصوّر جاكندوف اللّغة ، فاللّغة تقوم على مبدإ التّطوّر. وهو تصوّر ينسجم مع فرضيّة صندوق العدّة . وينسجم مع تصوّرات جاكوب التّطوّرية التي تنهل بدورها من نظريّة داروين رأسا وتستند إلى أفكار راسّل بصورة غير مباشرة.

ولقد لعبت هذه الفرضيّة دورا أكثر وضوحا في فرضيّة جاكندوف التي أطلقها سنة 2005 والتي وسمها بفرضيّة "التّركيب الأبسط Simpler Syntax ".

الخلفيّة الذهنوية للدّلالة التّصوّريّة.

خروج جاكندوف عن تشومسكي في اعتماده على منطقيّة راسل وتطوّرية جاكوب لم تمنعه من الإفادة ممّا اعتبره النواة الصلبة في الاتجاه التوليدي العام ، هذه النواة هي الفرضية الذهنوية التي آمنت بها التوليدية منذ نشأتها

ينظر إلى المعنى في الفرضية الذهنوية باعتباره "بنية معلومات مشفرّة في ذهن الإنسان". وهذه الفكرة هي امتداد لما استقرّ في المدرسة التّوليديّة من وجود بنية نظريّة تمثل جملة القدرات التي يحتكم إليها الإنسان والتي تمكّنه من اكتساب اللّغة ، واستعمالها ، وفهمها.

ولكن إن لم يصرح جاكندوف بالخلفية الإبستمولوجيّة التي اعتمدها والتي حاولنا الكشف عن أهم أسسها في الفقرة السابقة فانه يصرّح في غير موضع أنّه يعتبر الذّهنويّة) The Mentalistic (مسلمة من المسلمات الأولى ضمن تصوّراته ولا يمكن أن نفهم هذه المسلمة إلا في إطار علاقة اللّغة بالذّهن فما هو الإطار النظري الذي تدرس فيه الذّهنوية ؟

تُدرس الذّهنوية في إطار دراسة علاقة " اللّغة بالذّهن" و قد حدّدت أستاذة اللّغة بجامعة أكسفورد "جون أيتشيسونJean Aitchison) (في مقال لها ضمن الموسوعة اللسانيّة بعنوان " اللّغة والذّهن " الهدف الرئيس من هذه الدراسة هو " وضع منوال يضبط عمل الذّهن في علاقته باللّغة" . وتُشبّه خريطة الذهن التي يسعى الباحثون إلى رسمها بخريطة قطار الأنفاق بلندن .فخريطة الأنفاق لا تقدّم تحديدا دقيقا للمسافات الحقيقية بين المحطات أو تحاول تحديد بنية القطارات ومكوناتها بل هي تقدّم ملخّصا دقيقا لنقاط الوصل في النّظام " . (الموسوعة اللسانية ص 186)

وترى صاحبة المقال أنه لا يمكن ملاحظة أبنية الذّهن أو الوصلات التي تقيمها بين هذه الأبنية فيما بينها لان الباحثين في هذا الموضوع اعتمدوا فرضيات مختلفة. وهو ما يفسر حسب رأيها درجة الاختلاف الكبيرة التي نجدها.

تتميز دراسة علاقة اللّغة والدماغ عن دراسة علاقة اللّغة والذّهن .ففي حين تحاول الأولى أن تربط اكتشافاتها بالحقائق الفيزيائية. تدرس الثانية علاقة اللّغة بالذّهن في إطار ما يسمى " بعلم اللسانيات النفسي Psycholinguistics) (.

يماثل" توماس سكوفال) Thomas Scovel (في كتابه المرجع" Psycholinguistics " بين مصطلح علم النفس اللساني) Psychology Of Language (ومصطلح علم اللسانيات النفسى Psycholinguistics) (إذ يرى أنهما غالبا ما يستعملان بصورة مترادفة ".(ص 186) وبيّن كيف أن اللّغة تمثل في هذا السياق " نوافذ نطلُّ من خلالها على الذّهن البشري " فالطبيعة المعقدة للأذهان البشرية والطبيعة المعقدة للّغة من شانها أن تعيق هذه اللّغة على تأمين منافذ شفافة و جلية تساعد على رؤية الطريقة التي يشتغل بها الذّهن . إنها عادة ما تكشف عن مجرّد لمحات سريعة مضيئة لذا الذّهن فقط" (توماس سكوفل ، علم النفس اللّغويّ ،ص 186).

ويختزل "سكوفل" المباحث الرئيسية لهذا العلم في الأسئلة التالية :

كيف يكتسب الإنسان اللّغة والكلام ؟

كيف ينتج الإنسان اللّغة والكلام ؟

كيف يفهم الإنسان اللّغة والكلام ؟

كيف يفقد الإنسان اللّغة والكلام ؟

يمكن النظر إلى المباحث بصورة منفردة ولكن "سكوفال" يقترح تصوّرا جامعا تذكرنا بثنائيات دي سوسير . فسكوفال ينظر إلى هذه المباحث باعتبارها مجموعات تضم كل منها سؤالين ،ضمن إطار يجمع الأسئلة اثنين اثنين حاصلها أربع نوافذ منتظمة وفق التّمثيل التالي :

زماني .آني

تأليف الاكتساب الإنتاج

تحليل الفقدان الفهم

ما يهمنا من هذا الجمع هو الربط بين الاكتساب و الفقدان ،فهما يمثلان بداية الكلام ونهايته عند الإنسان. فاكتساب اللّغة يتطلب مهارة التوليف أمّا فقدانها فهو يقتضي عملية التفكيك . و رغم أن هاتين العمليتين تمثلان الطرفين المتضادين لحياة اللّغة فإنهما غير متصلتين كما ينظر إليهما من الوهلة الأولى. بل يمكن اعتبارهما مهمتين لغويتين نفسيّتين متناظرتين .أمّا عملية إنتاج اللّغة و فهمها فيمكن النظر إليها حسب سكوفال آنيا .ففي حين تقوم عملية الإنتاج على التأليف تقوم عملية الفهم على تحليل تلك المركبات" (توماس سكوفل ، علم النفس اللّغويّ ، صص 4-6)

على هذا الأساس يجب أن نفهم كل نظريّة تبحث في اللّغة باعتبارها ظاهرة نفسية - كما هو حال نظريّة الدّلالة التّصوّريّة - من المداخل النفسية المثبتة سابقا كاكتساب اللّغة وفقدانها وإنتاجها و فهمها . وهذه المداخل إما أن تدرس مجتمعة على صورة من الصور أو أن تدرس منفصلة . وفي هذا الإطار المعرفي العام يمكن أن نفهم المسلمة الذّهنوية التي اعتمدها جاكندوف فما هي الذّهنويّة ؟

الذهنوية هو مفهوم يطلق على النظريّات اللسانيّة التي تُعنى بمعالجة العلاقة بين اللّغة والذّهن .

وتعود البداية البسيطة الأولى لدراسة الذّهن و اللّغة إلى عمل أصدره الفيلسوف الألماني ديترش تيدمان Dietrich Tiedemann (1748-1803) سنة 1787 سجّل فيه بصورة دقيقة ملاحظات حول لغة ابنه من خلال مراقبة دقيقة لمراحل نموه . أما التجارب اللّغويّة النفسية من وجهة نظر اختباريه فلم تبدأ إلا في نهاية القرن 19 مع عالم النفس البريطاني فرانسيس غالتون Francis Galton (1822-1911) .(موسوعة اللّغة ص 335)

وفي فترة الثلاثينيات تطوّرت المقاربات النفسيّة للّغة ، فقد اعتمدها رائد التيّار السلوكي Behaviorism "جون واطسن John Broadus Watson (1878-1958) " منذ سنة 1919 في وصفه للمشاعر والأفكار من جهة الذّهن.

وظهر ضرب آخر من الذّهنويّة في دراسة اللّغة الأمريكيّة الأمّ مع إدوارد سابير (1884-1939) و لي وورف (1897-1941) Benjamin Lee Worf في الفرضيّة التي حملت اسميهما

(سابير-وورف) والتي اعتبرا فيها أنّ اللّغة تعبّر عن الأفكار و تشكلها أيضا. وهي الفكرة التي نقدها جاكندوف حين رأى أن اللّغة تعبّر عن الفكر ولكن لا تشكّله.

أحيى تشومسكي هذا المبدأ العامّ في الفترة الفاصلة بين (1965و1968) و قد استند فيه إلى عقلانيّة ديكارت ، وكانت العودة إلى هذا المبدأ بمثابة ردّ فعل على بنيويّة بلومفيلد الصارمة وعلى سلوكيّة سكينر الآلية. (الأفكار المفاتيح في اللسانيات ص 130-131)

فبنيوية بلومفيلد(1887-1949) اتخذت مبدأ "التجريبية " سندا فلسفيا لها وهو ما جعلها ترفض كل ما لم يكن ظاهرا أو ما ليس له وجود مادي للكلام في تحليلاتها و مقولاتها و ومناويلها .لذلك اقتصر البحث اللساني في التّوليديّة الأمريكية على تحليل المعطيات اللّغويّة إلى مستوياتها المتحققة فقط.

أمّا السلوكيّون ، فقد نظروا إلى اللّغة باعتبارها ضربا من ضروب السلوك الذي يكتسبه الإنسان اعتمادا على آليّة " الفعل و رد الفعل" وقد أضاف سكينر (1904-1990) مفهوم " تعزيز ردة الفعل" . ووفق هذه الآلية يمكن فقط تفسير طبيعة المعرفة اللّغويّة. ووفقا لهذه الرؤية لا تعد اللّغة سوى عادة من عادات سلوك الإنسان التي يحتكم تعلمها إلى النّظام الخارجي الذي يكتسبه الإنسان بعد أن كان ذهنه صافيا أو صفحة بيضاء" (مرتضى جواد باقر ، مقدّمة لنظريّة القواعد التّوليديّة ص 18).

لقد كان ينظر إلي اللّغة بمعزل عن خصائص الذّهن ، واقتصر البحث فيها على القوانين التي تضبط مجموعة الانتظامات ضمن النّظام وهو ما يطلق عليه تشومسكي مفهوم " اللّغة الخارجية Externalized Language" . أما النظرة الثانية إلى اللّغة والتي برزت مجددا مع تشومسكي فهي النظر إلى اللّغة باعتبارها خاصية ذهنية ذاتية خاصّة بالإنسان و ليست أمرا خارجيا . من هذه الزاوية ينظر إلى اللّغة باعتبارها لغة داخلية و يطلق عليها تشومسكي مفهوم "اللّغة الذاتية Internalized Language " (تشومسكي 1986) .

وهنا ظهر البعد الذّهنوي بصورة واضحة . إذ انتقل البحث اللّغويّ من النظر في اللّغة الخارجية إلى اللّغة الداخلية باعتبارها ملكة من الملكات التي يتوفر عليها الإنسان. والناظر في الفصل الأول من كتاب " مظاهر من نظريّة الإعراب" . يلاحظ بداية افتراض شومسكى وجود حقيقة نفسية لنظام القواعد و القوانين الفرعية فيه .فقد افترض " أن الدليل الأمثل لإثبات

صحة القواعد افتراضُ وجودها في الذّهن و افتراضُ كون القوانين التي تكتسبها تعكس العمليات الذّهنوية التي نستخدمها في الإنتاج الفعلي للجمل ". (نفسه ص32).

كانت هذه الخلفيّة الذّهنويّة دافعة لتشومسكي إلى عدم معالجة الأبنية معالجة سطحيّة ، بل تجاوز هذا المستوى إلى القول بوجود بنية عميقة ضمنيّة في كلّ لغة ، مع افتراض وجود ملكة فطريّة تمكّن المتكلم من تطوير ملكته اللسانيّة وذهب به هذا المبدأ إلى اعتبار اللّغة ذاتها عضوه ذهنيا" (Keys Ideas ص 130-131). وعلى هذا الأساس

يقوم التّصوّر الذّهنوي للّغة بصورة عامّة على معالجة العلاقات المختلفة بين اللّغة والفكر والواقع ، وتصف اللّغة الدّاخليّة التي في النفس وتفسّر مبدأ الإبداعية) Creativity (في اللّغة المكتسبة ، وتعالج سيرورة الفكر ، والنطق والفهم.

إذن تقوم الذّهنويّة على سيرورة تصوّريّة داخليّة تقع في الذّهن ، فهي تُعنى أساسا بعلاقة اللّغة بالذّهن داخليّا ، ولا تهتمّ بعلاقة المعنى بالكون الخارجي إلاّ في مرحلة لاحقة . وهو ما سنجد أثره في الأسس التي بنى عليها جاكندوف منواله خاصّة عند معالجته للقضايا المتعلقة بالمرجع والصّدق.

انطلق جاكندوف في مقاربته للمعنى ، من اعتباره مكوّنا حوسبيّا في الذّهن وتقوم المسلمة الأساسيّة للذهنوية على "اعتبار اللّغة الطّبيعية بنية معلومات مشفّرة ذهنيا ينجزها البشر ،ووفقا لهذه المسلمة يجب أن يكون المنطوق اللّغويّ قابلا للوصف.ولكن ليس وفقا للشروط الصوتمية أو الإعرابيّة فحسب بل وفقا لمستوى أخر مستقل من التّمثيل وهو المستوى الذي يمكن وسمه بالمستوى الدلالي أو التّصوّري." (ص 122-1987) . ويعدّ هذا الاعتبار مواصلة لما استقر في السنة التّوليديّة من كون اللّغة ملكة من جملة القدرات المجرّدة التي يحتكم إليها الإنسان وتمكّنه من التكلم واكتساب اللّغة وإنتاجها.وقد اقتضى التسليم بهذا المبدأ جملة المقتضيات التالية :

أ- افتراض وجود بنية تصورية عامّة عند كل البشر مسؤولة عن ملكات مختلفة بما فيها اللّغة.

ب- تحديد المرجع و الصدق من زاوية ذهنية خالصة ترى في العالم الذي نعيشه إسقاطا ذهنيا.

ج- اعتماد المَقْوَلة طريقا إلى إدراك هذا العلم .

د- توفر شرط قابليّة التعلّمLearnability) (.

هـ- الاتصال بالإدراك و الأحداث) Connection To Perception And Action (

ضمن هذه المقتضيات نعالج أهمّ الأفكار الكبرى المميّزة لتصور جاكندوف.

وبذلك نرى كيف أن جاكندوف لم يستطع الخروج عن المظلة الكبرى للإتجاه التوليدي في بعدها الذهني وهو ما يؤكد أن تاريخ المعرفة اللسانية لم يقع البتة على مفهوم القطيعة بالتصور الحدّي الذي يذهب إليه البعض .

خاتمة :

لقد حاولنا في هذا البحث الكشف - سريعا - عن الأسس الابستمولوجية التي قامت عليها نظرية الدلالة التصورية .ايمانا منا أن البحث اللساني يقتضي أن يولي هذه المسألة ماهو حقيق به من النظر والتمحيص ،فنتائج البحث اللساني ترتبط ارتباطا مباشرا أحيانا بما رسمه اللساني من حدود نظرية لمنواله ، فلا يمكن لنا أن نضمّ نتائج تفصيلية ، وإن تشابهت قواعدها وتفصيلاتها إن كانت تستند إلى منطلقات مختلفة ، فموضع النتيجة أ من النظرية ب تختلف كليا عن موضع النتيجة ج في نظرية د وإن بدت لنا أ و ب متشابهتن .

هذا الخلل المنهجي هو الذي دفعنا إلى محاولة التنقيب عن الأسس الابستمولوجية لنظرية الدلالة التصورية وهي نظرية تشترك مع نظريات أخرى في المنطلقات ذاتها وهي النظريات التي توسم بالتطورية و لكنها في الوقت نفسه تختلف عن نظريات أخرى وهي التي تتخذ من المثالية مبدأ أساسيا.

لذلك وجدنا جاكندوف حريصا على مخالفة المنطلقات التّوليديّة لذلك استبدل فلسفة ديكارت بتصورات راسّل واستبدل مثالية قاليلى ب تطورية جاكوب .

غير أن استبدال منطلقات الدّلالة التّصوّريّة لم يمنع جاكندوف من الانتماء إلى التّصوّر الذّهنوي العام. و هذا هو الإطار الذي اقتضى منه تقديم جملة من الافتراضات ، قمنا بتحليلها في متن هذا الفصل و أهمّها أنّه يوجد مستوى من التّمثيل الذّهنيّ يجب أن يكون

مستقلا. وتمثله البنية التّصوّريّة ، هذه البنية تعمل باعتبارها قاعدة شكليّة في الاستدلال وفي التواصل ، وفي إدراك العالم.

إن الدّلالة التّصوّريّة هي دلالة تقوم على مفهوم البنية التّصوّريّة .وهذه البنية تمثل ملكة موجودة في الذّهن . البشر ي مسؤولة عن ملكات مختلفة من بينها اللّغة.

وافتراض هذه البنية جعله ينظر إلى المشاكل الأساسيّة في الدّلالة من هذه الزاوية فبحث في مفهوم الصدق و المرجع من زاوية ذهنية خالصة ، ترى في العالم الذي نعيشه إسقاطا ذهنيا وهي الفكرة الأساسيّة التي أخذها من راسّل.كما بحث في المقولة باعتبارها طريقا إلى إدراك هذا العلم . وكذلك في الشروط التي يجب أن تتوفر في اللّغة مثل الاتصال بالإدراك و الأحداث و توفر شرط قابليّة التعلّم وقابلية شكلنتها و قيامها على مبدإ التأليفية من زاوية تصوّرية .

Ray Jackendoff
1983 Semantics and Cognition, MIT Press, 1983
1987Consciousness and the Computational Mind, Bradford/MIT Press, 1987
1990(a) Semantic Structures, MIT Press, 1990
1990(b) Language, Logic, and Concepts: Essays in Memory of John McNamara (co-edited with Paul Bloom 1990
and Karen Wynn), Bradford/MIT Press, 1999
1992Languages of the Mind, Bradford/MIT Press, 1992
1994Patterns in the Mind: Language and Human Nature, Harvester Wheatsheaf, 1993 (Europe); Basic Books, 1994 (USA) (Natural Science Book Club selection, May 1994)
1997The Architecture of the Language Faculty, MIT Press, 1997
2002Foundations of Language: Brain, Meaning, Grammar, Evolution, Oxford University Press, 2002
2005Simpler Syntax (with Peter Culicover), Oxford University Press, 2005
2007Language, Consciousness, Culture: Essays on Mental Structure, MIT Press, 2007
2011Conceptual Semantics in Claudia Maienborn, Klaus von Heusinger, and Paul Portner (eds.), Semantics: An International Handbook of Natural Language Meaning, Vol. 1, 688-709. De Gruyter Mouton(2011)

المراجع المعتمدة :

Anjum P. Saleemi : Universal Grammar and Language Learnability. Cambridge University Press 1992

Baker, C. L., And John J. McCarthy (Eds.) (1981): The Logical Problem of Language Acquisition. Cambridge, Mass.: MIT Press.

Collinge N.E an Encyclopedia Of Language- Edited By. First Published 1990 By Routledge Language and Mind: Psycholinguistics

David R. Dowty And Alt: Introduction To Montague Semantics , , D. Reidel Publishing Company , Dordrixht / Boston / Lancaster /Tokyo.1989

Davidson, Donald (1970): Semantics for Natural Languages. Reprinted In Davidson And

E Mark Gold : Language Identification In The Limit . Information And Control, 10, 447-474 (1967)'

Gleitman, Lila R., And Barbara Landau (Eds.) (1994): The Acquisition of The Lexicon. Cambridge, Mass ; MIT Press. Harman.(1975)

Jacob François : Evolution and Tinkering Science, New Series, Vol. 196, No. 4295. (Jun. 10, 1977), p. 1161-1166.

Katz, Jerrold J. (1972): Semantic Theory. Harper & Row, New York P 286- 287

Leslie Gabriel Valiant : A Theory Of The Learnable Communications Of The Acme , November 1984 Volume 27 Number 11 Pp 1134-1142

Pinker Steven: Language Learnability and Language Development Harvard University Press.

Routledge Christopher And Siobhan Chapman Key Ideas in Linguistics and The philosophy Of Language Edited By, Edinburgh University Press, 2009. P 131-130.

Russell B : A History of Western Philosophy. Ruskin House Museum Street London1961. .First Published In 1946

Russell B : On Denoting Mind, New Series, Vol. 14, No. 56. (Oct. 1905), Pp. 479-493 Oxford University Press. Cambridge, Massachusetts London, England Second Printing, 1996.

Russell ,B : An Inquiry Into Meaning And Truth . London –George Allen And Unwin Ltd -Fifth Impression 1956.

Scovel Thomas, Psycholinguistics Oxford University Press ,1998

Tarski, Alfred (1936) : 'The Establishment of Scientific Semantics'. In Tarski, Logic, Semantics, Metamathematics (Trans. J. H. Woodger, 2nd End., Ed. J. Corcoran), 401–8. Indianapolis: Hackett, 1983.

Van Valin, Robert (1994) : 'Extraction Restrictions, Competing Theories, And the Argument from The Poverty of The Stimulus'. In S. D. Lima, R. L. Corrigan, And G. K. Iverson (Eds.), The Reality of Linguistic Rules, 243–59. Amsterdam: John Benjamins.